أعلام الأدب

هجـــــرة يوريبيدز

للأستاذ دريني خشبة

ساءت حالة أثينا والأثينيين بعد موت بركليس (٤٢٩ ق . م) ، وأخذت المصائب تترى عليها في الداخل والخارج ... في الداخل على أيدى تلك الطغمة الشقية من زعماء الشعب وقادته الذين نبتوا بغتة فورثوا الزعامة كما ورثها السبياديس الزنق الطياش عن بركليس العظيم ، أو تملقوا الجماهير الغافلة التي لا إرادة لها . فأسلست لهم قيادها فأوردوها المهالك بعد ما ضللوا بها تضليلاً كبيراً متخذين من فساد الديمقراطية بعد موت بركليس سلاحاً يشهرونه في وجوه العقلاء والمفكرين .

أما في الخارج فقد تتابعت الهزائم على جيوش أثينا ، وأحرق الأسبرطيون حقول أتيكا وقراها ودساكرها كما صنع الفرس من قبل ، ثم حطموا قوة أثينا البحرية التي كانت تلقى الرعب في قلوب الدويلات الهيلانية .

كان يوريبيدز يرى ما حل ببلده الأثير المحبوب وهو جالس كالقديس في كهفه الجميل الفريد في صخرة سلاميس فيأخذه الوجد ، ويحزن أبلغ الحزن على ما آلت إليه الحال في أثينا من انحطاط مستوى الشعب الخلقي ، وتضليل الزعماء بالناس ، واقتتالهم على جاه الرياسة الزائف في حين قد أصبحت حرمات الوطن حلالاً لكل والغ ، في كل يوم غزو ، وفي كل يوم ثغر لمزة الوطن ، والإسبرطيون في كل فج يذلون العزة القومية ، وينشرون الفقر ، والأقوات متقوصة في أثينا ، والأمراض تفتك بالأهلين ، والأهلون لاهون عن كل ذلك بالجدل السياسي العقيم ، وبإلقاء التهم جزافاً على رأس كل وطني مخلص . فيوريبيدز كان يدعو للسلم لأنه كان يتمنى الهزيمة لبني وطنه ... فليُنْبَذ يوريبيدز إذن ... وليذكر ماضيه الزاخر بعداوته للمرأة وإلحاده بالآلهة ، واستهتاره بتقاليد السلف الصالح ، والفت بدعوته للسلم في أعضاء الجند ... ثم هو يسخر بالديمقراطية فهو من شيعة الاستبداد ... ثم هو تلميذ السوفسطائيين الملاحدة وصديقهم ، وأحد المبشرين بآرائهم ... فليؤخذ أخذاً شديداً لا هوادة فيه ولا مرحمة .. ولتشرك زوجته في خلق المتاعب المنزلية له فتصبح حياته جحيماً في المنزل ، وجحيماً في المجتمع ، وجحيماً في أثينا كلها ... ولماذا يبالي الشعب الضال ، والزعماء الأوشاب من طعن يوريبيدز في شرفه ؟! أليس قد اشتهر أن زوجته الأولى قد خانته ؟ فلماذا يتورعون من إرسال التهمة نفسها عن زوجته الثانية ؛ ثم لماذا لا يدسون إليه من يحدثه بذلك ! أليست هي فضيحة والسلام ؟ أليس المقصود هو وخز هذه الروح العالية الكريمة المتأبية ؟ فماذا ينفع في وخزها إلا صغار هذه الشائنات ؟ ألا أفلح شعب لا يحرص زعماؤه على الأخلاق ، ولا أفلحت أمة يبلغ بها الهوان أن تعبد أمثال أولئك الزعماء !

كان يوريبيدز معتزلاً جميع الناس في كهفه المنفرد ، وهذه الضائقة الأخلاقية تفتك بمواطنيه ، وكانت أنباء الأزمة تبلغه فيبتسم ساخراً ، ثم يعبس عبوسة عميقة مريرة ظهرت آثارها في درامته التي كان ينظمها في ذلك الحين (أورست ٤٠٨ ق . م) والتي حلل فيها أخلاق رجل ملتاث أو به مس لأنه قتل أمه ، وكيف أعدى هذا الرجل جميع من حوله بجنونه وخصوصاً أخته الكترا وصديقه بيلايدز ، وكيف انتهى أعوانه إلى حرق القصر الملكي في آرجوس ليكون أول مشهد من نوعه يعرفه المسرح اليوناني ...

وبالرغم من روعة أورست وأنها من أقوى ما نظم الشاعر فقد سقطت لأنها من نظم عدو الشعب ، الرجل النغي البخيل الذي طالما بخل بأمواله على بلاده في أشد أوقات محنتها ... هذه تهمة جديدة حاكها الرعاع حول يوريبيدز ، لأنه كان يقتني مكتبة من أحفل مكتبات أثينا بالكتب بل من أحفل المكتبات الشخصية في العالم في ذلك العصر الذي كانت تبلغ فيه قيمة الكتاب الواحد مالا قبل للفقير به

إذن فليهاجر يوريبيدز !

وليُلبِّ دعوة أهل مجنيزياله[1] ، ليحل عليهم ضيفاً حيناً من الزمان ، فإن بينه وبينهم صداقة قديمة وحبية كانت تجعل لهم

(١) إحدى مدائن وادي مياندر بالقرب من إفسوس

منه فى أثينا سفيراً يسهر على صوالحهم ويسر حوانجهم ... وليتليث عندهم أياماً ثم فَلْيُلَبِّ دعوة ملك مقدونيا العظيم الملك آرخيلوس، الذى كان يجمع حوله بلاطاً زاهياً زاهراً من أعظم رجال الفكر والفن فى العالم ، والذى كان يعتقد أن انتهاء أثينا على هذا النحو المزرى لا يعنى انتهاء المجد اليونانى ، بل يعنى هجرة هذا المجد ، وما دام أعظم رجال الفكر والفن اليونانيين قد هاجروا ، واختاروا بلاط مقدونيا مُهاجراً لهم ، فسترث مقدونيا هذا المجد الأثينى الباهر العظيم ، وستنهض مقدونيا فى عالى الفكر والحرب . وسيكون من ملوكها الملك فيليب وابنه الإسكندر ومن أضيافها العظماء الفيلسوف آرسطو المعلم الأول !

كان آرخيلوس ملك مقدونيا وواضع اللبنة الأولى فى بناء نهضتها يطمع من قديم فى اجتذاب الشاعر يوريبيدز إلى بلاطه لشدة إعجابه به ، وكان يعرف ما يلقى يوريبيدز من قومه من الهون وسوء التقدير ، فدعاه مرة وأطعمه فى حياة هادئة هانئة لا يعكر عليه فيها صفاءه معكر ، فلم يوريبيدز شكر واعتذر ، فلما هاجر إلى سلميز وعرف الملك ذلك جدد دعوته وشدّد ، فلبى يوريبيدز وأجاب ، وشد الرحال إلى البلاط المقدونى المتلألىء حيث وجد من رجال الفن تريكسيز أعظم مصوّرى عصره ، وحيث وجد الشاعر التراجيدى العظيم أجاثون ، والموسيقى الخالد تيموتيوس الذى كان يوريبيدز قد أنقذه من الانتحار كما مر بك ... ومما يؤثر فى قليل من الشك أنه لقى ثمة المؤرخ العظيم تيوسيدز

أقام يوريبيدز فى هذا البلاط الزاهر فكافأه الحظ السعيد لأول مرة فى حياته مكافأة معنوية عالية لم يكافئ بها الزمان أحداً من الأدباء قط ... لقد وردت الأنباء من سيراكوزه حاضرة صقلية بأن أسرى الحملة اليونانية التى أرسلها ألسبيادس لغزو الجزيرة والذين بلغ عددهم سبعة آلاف أسير قد اشترط الصقليون لإطلاق سراحهم أن يلقوا مقطوعات من شعر يوريبيدز ، فمن استطاع منهم ترتيل شىء من هذا الشعر ولو كان بيتاً واحداً فقد أطلق سراحه وصار حراً ، ومن لم يستطع فقد حل للصقليين استرقاقه ! أى مكافأة هذه يجود بها الزمان على شاعر ؟! وأية منزلة بلغها يوريبيدز فى الأوساط المثقفة المستنيرة فى الزمن الذى كان يعيش فيه ! ولكن ماذا كان أثر هذا الجيل فى أثينا والأثينيين ؟! لقد كان أثراً بالغاً من غير شك ، لقد شعروا بالخزى لأن أمماً أخرى غير أثينا قد أخذت تستيقظ وتتنبه ، ثم تسمو نحو المجد الأدبى حتى لقد عرفت من أدب يوريبيدز الأثينى ما لم يعرفه الأثينيون !

لم يسكن يوريبيدز إلى الدعة فى مقدونيا ، ولم يزهه إعجاب البلاط به فيستسلم إلى نشوة الخيلاء ، بل لعل الفضل الأكبر يرجع إلى هذه النشوة فى نظمه أعظم دراماته جميعاً (الباخوسية)[1] أو سكارى[2] باخوس

وتشبه الباخوسية من حيث الفكرة العميقة وجمال الموضوع بروميثيوث المصفّد لأسخيلوس ، وقد نسى فيها يوريبيدز أدب الواقع قليلاً . ثم تغلغل فى صميم الأساطير القديمة وغرق فى الأدب التقليدى الذى كان هو زعيم الثورة عليه ... ولا ندرى لم لم يعبر المؤرخون هذه الرجعة من يوريبيدز اهتماماً ، فلم يعللوها ولم يعرضوا لبحث أسبابها ... على أن مما لا ريب فيه أن أكبر أسباب هذا التحول هو البلاط المقدونى نفسه والبيئة المقدونية التى كان الشاعر يعيش فيها ... فأحلام رجال البلاط بالرغم من الأفراد الممتازين الذين جذبهم الملك إليه كانت أحلاماً بدائية مما يزدهيها أدب الملاحم والأساطير ولا يروقها الأدب التحليلى الذى ابتكره يوريبيدز ونظم فيه أروع آثاره... أما البيئة فقد ترددت أصداؤها فى الباخوسية بهذه القطع الخالدة التى صور فيها الشاعر كثيراً من مناظر الطبيعة فى مقدونيا تصويراً حياً رائعاً لا يكاد يدانيه شىء فى جميع ما نظم

والعجيب أن تكون الباخوسية مع ذلك أروع درامات يوريبيدز بالرغم من أنها نكسة فى مذهبه ، وربما كان العنصر الإلهى الذى امتازت به هو الذى جعل لها هذه المرتبة بين دراماته .. وهو العنصر نفسه الذى ارتفع بروائع الأدب الأخرى وأكسبها الخلود مثل كوميدية دانتى وفردوس ملتون ورسالة الغفران لأبى العلاء وفاوست لجيته

---

(١) اختلف مؤرخو الكلاسيك فى اسم هذه الدرامة فأثبته موراى كما جاء فى اليونانية Bacchae وسماها بورا The Bacchants وسماها كهنة باخوس ، أو المرحون ، أو السكارى ، أما ملمان ، أحد مترجمى يوريبيدز (مجموعة دالت حـ ١) فقد سماها The Bacchanals وسماها عباد باخوس أو مريدو باخوس

(٢) المقصود جمع المؤنث من سكرى بفتح السين

والباخوسية تفيض بروح لاذعة من السخرية، وفيها مناظر تضحيكية مرة تقف بالإنسان ليتساءل: ترى هل بين هذه المناظر وما جاء مثلها فى درامة إفجنيا فى أوليس التى لم يكملها يوريبيدز، صلة؟! هل من الحق أن المناظر التضحيكية التى تفيض بها إفجنيا ليست من صنع يوريبيدز؟ وهل الفن الذى تشهده فى إفجنيا هذه هو فن غريب عن يوريبيدز لأنه لم يرد فى دراماته أيضاً؟ فلم إذن حشد يوريبيدز هذه المناظر التضحيكية فى الباخوسية التى نظمها فى مقدونيا كما نظم أختها إفجنيا هناك؟!

هذه أسئلة ترغم الإنسان على إعادة النظر فى كل ما قيل عن فن يوريبيدز!! لقد رأينا كيف تأثر سوفوكليس الشيخ بيوريبيدز الفتى فى أخريات حياته، أفلا يكون يوريبيدز هو الآخر قد تأثر بعدوه أرستوفان؟

* * *

يتقدم إله الخمر باخوس ـ أو ديونيزوس ـ متنكراً فى رهط من نسائه السكارى المتوحشات إلى طيبة فيذوده ملكها بنثيوس عن القصر الملكى، ويظل هو ونساء الحاشية الملكية فى انتهاره والإزراء به، والتهكم عليه. ثم يأسر الملك بتكبيله بالقيود والأصفاد ثم بإلقائه فى غيابة السجن ذليلاً محسوراً ... وهنا تتجلى المقدرة الإلهية العجيبة، فإن ديونيزوس الذى يصبر لهذا الهوان من أحد رافضى عبادته يرسل طائفاً من الجنون يجتاح سيدات القصر الملكى كله بما فيهن أجاف أم الملك فينطلقن مهرولات مولولات ليتخرطن فى صفوف ديونيزوس، وليمكفن على عبادته. وينصح أشياخ الشعب الطيبى للملك أن يحد من غلوائه ضد الإله وأن يشرب قلبه محبته عسى أن يغفر له، لكن الملك لا يزداد إلا شموساً، فلا ييأس ناصحوه من النصح له حتى يقبل آخر الأمر أن يستخفى فى زى امرأة ثم ينطلق إلى جبل كيثارون حيث يختبىء فى بعض الأدغال القريبة ليشهد كيف يقبل نساؤه الملكيات على عبادة الإله وليقف بنفسه على مدى خشوعهن له ... وما يلبث الملك المستخفى أن يفتضح أمره فيضبطه نساؤه فى مخبئه، وتهجم عليه أمه وهى غيا هى فيه من طائف الجنون المقدس فتقتله ثم تمزقه إرباً، وتنثر فى الهواء أشلاءه، وتنطلق برأسه نشوانة بخمر النصر وهى تحسب أنها قد قتلت أسداً، وأن الرأس التى تحمله هو رأس ذلك الأسد!

فإذا انتهت إلى القصر، وراحت تفتخر بفعلتها التى فعلت، لقيها أبوها قدموس الذى آب هو أيضاً من جبل كيثارون حاملاً أشلاء حفيده، فيقول لها وتقول له، وقد فاءت قليلاً من طائف الجنون المقدس:

أجاف — ماذا؟ ما الذى تذكرون؟ فيم أسفكم أيها الأهل؟[1]

قدموس — دورى بعينيك قبل كل شىء فى الهواء الذى حولك!

أجاف — أدور بعينى؟ ولماذا أفعل يا أبتاه؟

قدموس — ألم يتبدل الأمر غير الأمر؟ ألم يحدث أى تغير!

أجاف — لله ما أجمل وما أبهى! أبداً ما رأيت مثل هذا أبداً؟!

قدموس — أما تزال خيلاؤك تهيمن على روحك!

أجاف — لست أدرى ماذا تقصد! إنى أفيق قليلاً ... إن عقلى المضطرب يصحو ...

قدموس — ألا تستطيعين أن تنتبهى وتجيبى على ما أسألك؟

أجاف — لقد نسيتُ يا أبتاه كل ما قلت!

قدموس — أتذكرين إلى من زففناك عروساً يا بُنيّة؟

أجاف — إلى إخيون الذى يدعونه ابن التنين!

قدموس — وتذكرين ابنه الذى حملت فى أحشائك؟

أجاف — بنثيوس، الوشيجة المقدسة التى تربط قلبينا!

قدموس — إذن رأس من هذا الذى تحملين فى كلتا يديك؟

أجاف — رأس أسد! هكذا قال رفاق الصيد!

قدموس — أنظرى إليه إذن فلن يكلفك النظر إليه عناء!

أجاف — ماذا أرى؟ ما هذا الذى أحمل فى يدى؟

قدموس — أنظرى إليه مرة ثانية.. إنك توشكين أن تعرفى!

أجاف — إنى أرى الفزع الأكبر الذى ما رأيت مثله أبداً!

قدموس — هل هذا يشبه الأسد؟

أجاف — كلا! واتعساه! إنه رأس ولدى بنثيوس!

قدموس — ومع ذاك فلم تذرف عليه عيناك عبرة واحدة قبل الآن!

أجاف — من قتله؟ وكيف انتقل رأسه إلى يدى؟!

قدموس — أيتها الحقيقة المرة! لقد أتيت فى غير الأوان!

أجاف — تكلم! إن قلبى يخفق حتى ليكاد يثب من بين أضالعى!

(١) الترجمة عن ملمان مجموعة فاتيه ج ٢ ص ٣٤ وما بعدها.

قدموس — أنت يا ابنتي التي ذبحته . . . أنت وأخواتك !

أجاف — وأين : هنا ؟ أم في أي مكان ؟!

قدموس — هناك ... حيث انقضت عليه كلاب أكتيون فمزقته إربا !

أجاف — ولم ذهب إلى كيثارون ولدى التمس ؟

قدموس — ذهب ليستهزئ بالإله ! وليسخر بالسكارى من عابداته !

أجاف — ولكن كيف وقيم ذهابنا نحن إلى هناك ؟

قدموس — لقد أصابك طائف من الجنون ، وقد جنت المدينة كلها معك !

أجاف — وا أسفاه ! لقد أهلكنا ديونيزوس ؟ آ لآن عرفت ذلك ! !

قدموس — هذا جزاء ما سخرتم به ... لقد نسيتم أنه إله !!

أجاف — وأين جثمان ابني يا أبتاه ! !

قدموس — ها هو ذاك ... لقد لقيت العناء في جمعه !

أجاف — وهل كل أشلائه سليمة .. و.... هل أصابه ما كان قد أصابني ؟

* * *

ثم تبكي الأم ولدها ويبكي قدموس حفيده ، ويشتد في بكائه إياه لأنه سيظل بلا عقب ولا وارث للملك ولن تكون له ذرية من الرجال ... ثم يبدو الإله ديونيزوس جلية فيصمت الجميع ، ويأخذ رب الخمر في إصدار أحكامه وإبرام إرادته فينذر قدموس أنه سيمسخه فيكون تنينا ، وستكون زوجته هولة شائهة الوجه . أما أجاف فستكون هولة أيضا وستنفى من طيبة إلى أقصى الأرض . . . فإذا تضرعت إليه أن يترفق بها ذكرها بما كان من استهزائها به وتهكمها عليه . . . ثم تودع أباها ووطنها وداعا مؤثرا وتنطلق من فورها إلى منفاها السحيق

أما الإله فإنه يسمو صعدا في الهواء ليلحق بدولة الأولمب ! !

فهل رأيت سخرية كهذه السخرية ؟ ! لقد حشد يوريبيدز طائفة كبيرة من الطعن في أهل البربر في الباخوسية ، كما لجأ كعادته إلى الإشادة بذكر الميلانيين ... وقد أقام في مقدونيا عاما ونصف عام كان فيهما صفي الملك وحبيبه ومصدقه . . . ثم مات يوريبيدز متأثرا بجراحه التي يزعمون أن كلاب الملك وكلاب المقدونيين أحدثتها به حينما انطلقت عليه تنهره وتمزقه وتمزق جسمه[1] ؟ ! ... فهل هي رواية صادقة ؟ ! وهل بين هذه الرواية وبين ما طعن به على البربر علاقة ما ؟ وهل المقدونيون من البربر ؟ أم أن استخلاص الملك له وإيثاره إياه أثار في قلوب رجال الحاشية حسدهم له وموجدتهم عليه فأغروا كلابهم به ؟ !

لقد زعموا أن الملك وجد على يوريبيدز وجدا شديدا ... وأنه رفض إرسال جثمانه إلى أثينا ليدفن هناك وقد ألح الأثينيون في طلبه وتوسلوا إلى ملك مقدونيا بشتى الوسائل ، لكن الملك آثر أن يدفن صديقه بالقرب منه في بيللا Pella (سنة ٤٠٦)

ومضى عشية

(١) يروى أن الملك خرج للصيد يوما وكان يوريبيدز يحب النزلة على ما تعود فكان يخلو إلى نفسه في غابة قريبة هي التي خرج الملك للصيد فيها فانقضت الكلاب على يوريبيدز فمزقته ... وهي رواية مفتعلة

مطبعة المعارف ومكتبتها تحت التقدم

تموذجا من التأليف العلمي وتحفة أدبية

مباحث عربية

للأستاذ بشر فارس

الدكتور في الآداب من السوربون

موضوعات مبتكرة . توجيه جديد . اصطلاحات مستحدثة في ألوان الحضارة والتعبير العلمي . مراجع وافية فيها الكثير من النادر والمخطوط . تعليقات مستفيضة .

٣ مسارد :- الأول: للمخطوطات . الثاني: للاصطلاحات العربية . الثالث: للاصطلاحات الأوربية

طبع متقن وورق ممتاز

الثمن ١٥ قرشا صاغا (٣/٢ شلنا) عدا أجرة البريد